إشكاليــة الهوية في المجتمعات العربيـة قراءة في مسـألة الانتماءات الفرعيـة

أ.م.د.احمد عبد الله الناهي* م.د.صدام عبد الستار رشيد**

الملخـص

كان موضوع الهوية الوطنية وما يزال يمثل احد المسائل المثيرة للجدل والسـجال والنقـاش الحـاد فهـو يـثير جملـة اشـكالات سياسـية بالدرجـة الاولـى واجتماعية واقتصـادية وفكرية وثقافية بدرجة اقل في معظم الدول والمجتمعات العربيـة وغيرهـا من دول العالم الناميـة لاسيما تلك التي تعيـش اوضـاعاً مضـطربة وتمتـاز بـالتنوع القـومي والمـذهبي والـديني والعشـائري، ونقـول سياسـية بالدرجـة الاساس لان الظروف والمناخات السياسية وطبيعة النظام السياسي القائم تلعب دوراً كبيراً وفاعلاً الى جانب عوامل اخرى مكملة لها اما في بلورة وتعزيز الهوية الوطنيـة او اضعافها وتغييبها لصـالح هويـات فرعيـة– قوميـة او دينيـة او مذهبيـة او مناطقية.

لـذا ليـس بمقـدور الهويـات الفرعيـة في مثل هـذه المجتمعـات بنـاء هوية وطنية، لان مجال عملها واهتمامها يدور في الحيز الاجتماعي (المجتمع) وليس الحيز السياسي (الدولة) اذا ماعلمنا ان من اهم صفات الدولة الحديثة انها وطنيـة تتجاوز الجزء لتشمل الكل وعليه فالثقافة الفرعيـة لاتستطيع بنـاء المواطنة لكونها ضيقة ومحصورة ضـمن حيز فئتها الاجتماعيـة التي تمثلها وبالتالي تقيـد خيـارات

الفرد لصالح قرار الجماعة الطبيعية فتقيم احزاباً فئوية او طائفية او عرقية تعمل بقوة انتمائها الفرعي وليس بقوة البرنامج السياسي الذي تقدمه للجمهور.

المـقدمـــة

يعاني الانسان العربي المعاصر من ازمة هوية وانتماء عميقة وشاملة وتعود جذور هذه الازمة الى وجود الانسان العربي في ظل كيانات اجتماعية متعددة ومتعارضة تبدأ بالقبيلة والطائفة حيناً وتنتهي بالدين والأثنية احياناً اخرى.[1] فالوطن العربي كيان مركب معقد تتداخل فيه عناصر الولاءات المحلية بالولاءات الوطنية ولاتتطابق فيه حدود الجغرافيا مع حدود المشاعر ولاحدود السياسة مع حدود الامة والسبب في ذلك يعود الى ان نشوء الدول العربية لم يأتي بشكل طبيعي وتطور مستمر وانما نتيجة عوامل خارجية على الاقل فيما يتعلق بتحديد الحدود الدولية لهذه الدول وفصلها عن بعضها متمثلة بالاستعمار الذي اراد تجزئة الامة العربية الى دويلات صغيرة وبالتالي اضعافها من خلال زرع الحدود المصطنعة فيما بينها وانشغالها بمشاكلها الداخلية الضيقة والهوية الفرعية احد اهم هذه المشاكل التي تواجهها وتهدد وجودها.

ان هذا الامر يمكن ان يؤدي الى تعدد انتماءات الشخص لاسيما في المجتمعات النامية ومجتمعنا العربي منها، لأن القبيلة والطائفة والمذهب والقومية لاتزال قوية وضاربة بجذورها في ارض المجتمع وقادرة على تشكيل افعاله وسلوكه والسبب في ذلك يعود الى ان الشخص العربي يمكن ان يشعر باكثر من انتماء واحد، فهو ينتمي للعشيرة التي تشكل جزءاً من القبيلة الاكبر، وهو ايضاً جزء من طائفة معينة وايضاً جزء من قومية او اثنية في حالة كون البلاد متعددة الاثنيات كما في العراق والسودان ولبنان وسوريا وغيرها.

وعلى هذا الاساس فان تعددية الانتماء وتناقضاته تؤدي الى حالة من الانشطار في الهوية الاجتماعية والى حالة من التمزق الوجداني عند الانسان العربي الذي تتخطفه مشاعر الانتماء لجماعات اجتماعية متعارضة ومتنافرة على مختلف المستويات والاتجاهات، وفي غمرة هذا النمو الكبير لهذه الولاءات الضيقة بدأ الانسان العربي المعاصر يتعرض لكل اشكال الاضطهاد والتمييز والتسلط ويعاني من مختلف الوان التعصب الطائفي احياناً والعشائري احياناً اخرى.

ان شعوب العالم واممه متشابهة من موقع كونها شعوباً تشترك في ان لها آمالاً واحلاماً ومشاكل ولكنها متميزة من موقع هوياتها، اي ان للشعوب والامم هوياتها الخاصة بها والتي تميزها عن غيرها وتميزها عن بقية المجموعات البشرية الاخرى في هذا العالم[2]، ان الهوية الوطنية الجامعة لاتعني مطلقاً ان يتخلى الناس عن خصوصياتهم الاجتماعية والدينية والفكرية، كما انها لاتعني بالضرورة الاشتراك في جميع الخصائص الثقافية والاجتماعية كي يكون لديهم الاحساس بالانتماء الوطني لانها بمفهومها الواسع تعني اشتراك اناس من مختلف الثقافات والعقائد والاعراف بوطن واحد ومصير مشترك ضمن الهوية الوطنية الجامعة. [3]

وفي اطار بحثنا هذا سنتناول الموضوع من عدة محاور هي:

المحور الاول: الهوية والانتماء: قراءة في المفاهيم

المحور الثاني: اشكالية الهويات الفرعية في الوطن العربي.

المحور الثالث: عوامل قيام اشكالية الهوية في الوطن العربي.

المحور الرابع: نتائج اشكالية الهوية في الوطن العربي.

الخاتمة.

المحور الاول: الهوية والانتماء:قراءة في المفاهيم

يستخدم العديد من الباحثين مصطلح الهوية والانتماء والولاء في سياق الاشارة الى علاقات تربط شخصاً معيناً بمجموعة اجتماعية معينة، غير ان هذه المصطلحات الثلاثة ليست مترادفة وانما لكل منها سياقها الذي تستخدم فيه، فمهوم الهوية في ثقافتنا العربية ينطلق من الاخر وليس من الانا ، فكلمة هوية مشتقة من (هو) الذي يعني الاخر بعكس معناه في اللاتينية، اذ اشتقت كلمة هوية (**identity**) من الانا والفرق هنا واضح وله ابعاده الثقافية العميقة، اذ ان الاحساس بالذات في ثقافتنا العربية ينطلق من تحديد هوية الاخر سواء كان في الداخل او الخارج، لذلك فالنظر اليها من خلال بعدها الفردي يقود الى القول بوجود كائن مطلق غير متغير في الزمان مع مايعنيه الموقف من ملابسات . اما في حالة النظر اليها من جهة دلالتها الاجتماعية فان الاشكال يصبح اعقد لانه من المستحيل ان يكون افراد مجموعة ما متماثلين كلياً ويتوفرون على الهوية نفسها.[4]

كما ان الهوية تشير الى الانتساب الثقافي اي انتساب الى معتقدات وقيم ومعايير معينة تحددها الثقافة الاجتماعية التي ينتمي اليها الفرد والتي يكتسبها من خلال ملية التنشئة الاجتماعية السوية التي يمر بها في حياته، فالهوية لازمة للمواطنة لان المواطنين لابد لهم من نظام سياسي وعلاقات اقتصادية واجتماعية وقوانين تضبط هذه العلاقات وكل هذا انما يبنى على معتقدات وقيم ومعايير، اي على هوية معينة[5]، ولاتواجه الهوية الوطنية السياسية اشكالية في عملية بنائها وقبول مجتمعها بها إلاعندما تتكون الجماعة الوطنية السياسية من جماعات فرعية ذات هويات اجتماعية متنوعة وتسعى احدى تلك الجماعات او كل واحدة منها الى تقديم هويتها الفرعية بوصفها مشروعاً لهوية وطنية سياسية عامة تحتوي الهويات المغايرة وتذوبها فيها وهو مايدفع حاملي تلك الهويات الى التمسك بهوياتهم مما يمنع تحقيق الاندماج الوطني المشروط

بالانتماء الى هوية وطنية سياسية جامعة تحترم وجود وحريات الهويات الفرعية المندمجة في اطارها.[6]

اما الانتماء، فهو مفهوم اجتماعي يمثل علاقة الفرد بالمجتمع او بالجماعة الاجتماعية وبالتالي فأنه يؤكد حضور مجموعة متكاملة من الافكار والقيم والاعراف والتقاليد التي تتغلغل في اعماق الفرد فيحيا بها وتحيا به حتى تتحول الى وجودغير محسوس كأنه الهواء يتنفسه ولايراه[7]، وعلى هذا الاساس فأن الانتماء هو اجابة عن سؤال الهوية من نحن؟ والانتماء ايضاً هو صورة الوضعية التي يأخذها الانسان ازاء جماعة معينة او فلسفة او عقيدة معينة، وكذلك قد يأخذ صورة شبكة من المشاعر والاحاسيس التي تربط الفرد بالمجتمع وهذا بدوره يؤسس لمجموعة من العلاقات الاجتماعية التي تتجاوز حدود المشاعر الى الفعاليات التي يتبادلها الفرد مع موضوع انتمائه.[8]

وهنا من الممكن التمييز بين الانتماء والشعور بالانتماء، فالانتماء حالة موضوعية يفرضها الواقع في اغلب الأحوال، فانتماء الفرد الى قومية معينة او ديانة معينة هو امر يتعلق بولادة الفرد لا بقراره، في حين ان الشعور بالانتماء قد يتطابق مع واقع الانتماء وقد يخالفه، فقد تغيب لدى شخص معين مشاعر الانتماء الى الجماعة التي ينتمي اليها الا انه في بعض الحالات فان الشعور بالانتماء هو الذي يفرض واقع الانتماء كأنتماء الشخص الى فلسفة سياسية او اجتماعية معينة.

ومن هذه النقطة يمكن الانتقال الى مسألة الولاء والذي يمكن اعتباره البعد الذاتي في الانتماء والذي يعبر عن اقصى حدود المشاركة الوجدانية والشعورية بين الفرد والجماعة التي ينتمي اليها فالولاء هو حالة دمج بين الذات الفردية في ذات اوسع منها واشمل ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءاً من اسرة او من جماعة او من امة او من الانسانية جمعاء[9]، وعلى هذا فالولاء هو الشعور

الذي يحول الانتماء كحالة واقعية تجريدية الى حالة الفعل اللازم للتدليل على هذا الانتماء.

ان الفرد في العادة يجمع بصورة اعتيادية بين مجموعة من الانتماءات المختلفة كالانتماء العائلي والمناطقي والقومي والديني وهذه الانتماءات مع وجودها جميعاً لدى الفرد فان الشعور بها يختلف من شخص لآخر، فقد يغلب شخص ما انتماءه الديني على انتماءه الوطني في حين يحدث العكس لدى شخص آخر، وهذا يعني ان كل شخص في الواقع لديه جدول بترتيب اولويات شعوره بالانتماء، فقد يشعر شخص بانتمائه لعائلته اولاً ومن ثم الى وطنه وبعده الى دينه ثالثاً وقد لا يشعر شخص ما بانتماء معين رغم كونه احد افراده موضوعيا، فالكثير جداً من عرب المهجر مثلاً يضعف لديهم ارتباطهم بأمتهم العربية بل وبأوطانهم القطرية أيضاً بعد مرور فترة من الزمن، بل ان هناك من يتخلى عن دينه ويندمج نهائياً في البلدان التي يعيش فيها وبالتالي يفقد شعور الانتماء الى الجماعة وعندها يفقد الانتماء نفسه.

ومن هنا يمكن القول، ان الهوية بالنسبة للشخص هي حاصل التفاعل بين الانتماءات المختلفة والتي ينتج عنها مميزات خاصة بكل شعب او ما يطلق عليه الهوية الوطنية للشعب، غير ان الامر ليس بهذه البساطة ذلك ان الانتماءات لا تسير دائماً بالتوازي والترتيب وانما قد تتعارض فيما بينها، فالانتماء القبلي يتناسب عكسياً مع الانتماء الوطني وبالتالي فان قوة الاول لدى افراد المجتمع قد تؤدي الى ضعف الاحساس بالولاء للوطن وبما قد يؤدي الى تمزيقه وانتهاء الدولة كما هو حاصل في الصومال والسوادن مثلاً وينطبق الامر نفسه على مسالة الانتماء الى الطائفة وما يعكسه على انتمائه للوطن فلا يزال الناس كما تشير نظرية الهوية الاجتماعية ينحازون لصالح مجموعاتهم عندما تقارن بمجموعة اخرى حتى عندما تكون مجموعتهم تعسفية وطارئة وصغيرة جداً[10].

ويبـدوا الامـر منطقيـاً ذلـك ان الانتمـاء للعائلـة والقبيلـة والطائفـة هـي انتماءات اولية تعتمد رابطة الدم (بما في ذلك الطائفة والديانة التي تعتمد بصورة شبه مطلقة على طائفة الاب وديانته) وبالتالي فأنه يكون امراً اعتيادياً بالنسبة للشخص فهو يولد معه وقد لاينتهي الا بوفاته هذا من جهة، ومن جهة ثانية تترتب عليه تأثيرات على هوية الفرد وتعريفه لنفسه وتترتب عليه حقوق والتزامات تجاه المجموعة التي يكون عضواً فيها من ناحية ثالثة.

بمعنى آخر ان الجماعة الاولية (اي العائلة والعشيرة والطائفة) تعتبر بالنسبة للشخص جزءاً من هويته غير انها في بعض الاحيان قد تشكل الجزء الرئيس من هويته وبالتالي يتجه اليها بولائه وعندها يحصل التعارض بين ولائه لدولته وبين ولائه لهويته الفرعية[11]، ويزداد الامر إشكالاً عندما تكون الولاءات الفرعية الموجودة في الدولة متنافرة مع بعضها او تشعر بالتمييز ضدها مما يدفعها الى محاولة التشبث اكثر بالهوية الفرعية والحفاظ عليه وقد يصل الامر الى طلب الانفصال عن الوطن الام من اجل تأمين سلامة القبيلة او الطائفة وعليه يكون الارتباط بينه وبينها عاطفي وغير عقلاني وبالتالي يتحول هذا الارتباط الى ارتباط لا يتأثر بالنقد العقلي والتطور الاجتماعي[12].

المحور الثاني: اشكالية الهوية في الوطن العربي

من المعلوم ان تماسك اي مجتمع انساني يتوقف على فهم افراده لقيمه وقواعده المشتركة وهذا الفهم لا يكتسبه الانسان بالولادة وانما يحصل من خلال مراحل حياته المختلفة التي تنطوي على الوسائل التي يكتسب بواسطتها الافراد المعرفة والمهارات وقواعد التصرف التي تؤهلهم للمساهمة كأعضاء فاعلين في انشطة الجماعات المتنوعة والمجتمع الشامل[13].

وبما ان المجتمع العربي بوصفه احد المجتمعات النامية لم يستطع بعد الوصول لمرحلة توحيد الهوية الوطنية والقومية للمواطنين وهو امر لم تستطع دول

متقدمـة مثـل فرنسـا واسـبانيا وروسـيا الوصـول اليـه ايضـاً، لـذا تتعـايش فـي هـذا المجتمع الهوية الفرعية جنباً الى جنب مع الهوية الوطنية التي يجري بنائها وان بشكل بطئ وعلى شكل مراحل.

اضف الى ذلك، ان (برلو) يؤكد ان المساهمة تقضي بأن الشخص بقدر ما هو جزء من كل فانه يبقى في الكل ويعمل داخل الكل ولا يستطيع ان يطالب بمكانة متميزة وان المساهمة من شأنها ان تستبعد تجزء الدولة فهناك ليس عدم انقسام فقط وانما اكثر من ذلك عدم امكانية الانقسام[14]. واذا افترضنا بان الهوية الوطنية تمثل اطاراً جامعاً او بوتقة تنصهر فيها هويات عديدة على ضوء حقائق الواقع الاجتماعي العام فان ذلك يحتم علينا ان نشخص او نسمي الهويات التي تشكل بمجموعها ان تجانست مع بعضها البعض الهوية الوطنية، وبعبارة اخرى يمكن ان تكون عاملاً مساعداً لتعزيز وتقوية الهوية الوطنية او العكس ومن هذه الهويات الفرعية نذكر:[15]

1-الهوية القومية

تعد من ابرز ملامح وسمات الكثير من الشعوب والمجتمعات بل ان الكثير منها تشكلت وتكونت على اساس قومي وبعضها تفككت بسبب تعدد القوميات فيها وغالباً ما يحصل نوع من الخلط من قبل بعض الكتاب والمفكرين بين الهوية الوطنية والهوية القومية حتى تبدوا كل واحدة منها مرادفة للاخرى بينما الصحيح هو ان الثانية هي جزء من الاولى.

فالهوية القومية لاي شعب من الشعوب تتشكل من داخل مجموعة القسمات الثقافية والحضارية الغالبة على افراده والتي تميزه عن بقية شعوب العالم في الاطار الانساني الجامع وتتمخض الهوية اوالشخصية القومية عن عملية تاريخية طويلة ومعقدة نتيجة تفاعل مجموعة عوامل بعضها غير مادي كاللغة

والثقافة والتجربة التاريخية المشتركة وبعضها مادي كالجغرافية والاقتصاد تؤدي الى صهر مجموعات بشرية معينة ضمن كيان قومي موحد.

2- الهوية الدينية

في بعض الاحيان تشكل الهوية الدينية اطاراً جامعاً ومكملاً للهوية الوطنية وفي احيان اخرى يحصل العكس والعراق يمكن ان يكون مثالاً او انموذجاً للحالة الاولى بينما جمهورية يوغسلافيا السابقة او جمهورية البوسنة والهرسك تعد نموذجاً ومثالاً للحالة المعاكسة، والاطار الديني هو في واقع الامر اوسع واقوى من الاطار القومي بكثير، بعبارة اخرى يمكننا القول ان فضاء الهوية الدينية اوسع من فضاء الهوية القومية واكثر ديمومة بيد ان التداخل بينهما لا ينفي حقيقة وجود نقاط التقاء وتوافق بينهما ترجح كفتها على نقاط التقاطع والافتراق.

3- الهوية المذهبية

قد تكون من اكثر القضايا اثارة للجدل والنقاش عند الحديث عن الهوية الوطنية لسبب بسيط هو ان الانتماءات والتوجهات المذهبية غالباً ما تؤدي لحدوث تشظيات كثيرة وكبيرة في الهوية القومية والهوية الدينية بل وحتى الهوية العشائرية القبلية، ونجد مصاديق هذه الظاهرة في مختلف المجتمعات والدول التي يعتنق ابنائها ديانات مختلفة كالاسلامية واليهودية والمسيحية والبوذية وغيرها وهي ذاتها التي تعد مجتمعات ودول متعددة القوميات كما في الهند والصين والعراق ، فالهند تمثل انموذجاً معقداً من التنوع مع وجود مجموعات كبيرة جداً متنوعة من حيث اللغة والاثنية (كالناطقين بالهندوسية والبنغالية والتاميلية.. الخ) ومثال الحرب الاهلية في لبنان (1975-1990) انموذجاً ماثلاً وصارخاً على ذلك وصراع الحكومة اليمنية مع الحوثيين والفتنة الطائفية التي اثيرت في العراق بين عامي 2006 و 2008 هي في الواقع امثلة حية وواقعية.

4- الهوية العشائرية – القبلية

ما زالت النزعات والسلوكيات والثقافات العشائرية–القبلية تهيمن على نظم سياسية ومجتمعات يفترض انها بلغت درجة متقدمة من الرقي والتطور في مجالات مختلفة، والاشكالية هنا تكمن في ان تلك النظم والمجتمعات لم تتمكن من صياغة وبلورة هوية وطنية شاملة ومتعددة الابعاد والعناوين تنصهر في بوتقتها الهويات الفرعية دون ان تلغي خصوصيتها، وفي مجتمعات الدول العربية في الخليج العربي على سبيل المثال تبرز الهوية العشائرية – القبلية باجلى صورها[16]، ومثلما نجد تداخلاً كبيراً بين الهويات الدينية والمذهبية والقومية فان تلك الثلاث تتداخل وتتشابك مع الهوية العشائرية–القبلية لتكون في بعض الاحيان عامل قوة للكيان الاجتماعي وفي احيان اخرى عامل تشظي وتفكيك وصراع وتصادم[17] .

ويمكن تحديد اهم اشكاليات الهويات الفرعية والتي تقف عائقاً امام الوحدة الوطنية بالاتي:[18]

1. **تعدد وتنوع واختلاف المكونات الاجتماعية التي تبدأ بالقومية والدين واللغة وتنتهي بالقبيلة والطائفة رغم محدوديته نسبة لمجتمعات اخرى اكثر تنوعاً الا انها لم تعاني من هذه المشكلة.**
2. **تعدد الولاءات والانتماءات التي تستقطب كل واحدة منها مشاعر الولاء الاجتماعي حولها.**
3. **النزعة الابوية–البطريكية التي تسيطر على البنية الفكرية والاجتماعية والثقافية التي تقوم عليها علاقات القرابة وصلة الدم وما يرتبط بها من قيم واعراف وعصبيات عشائرية تغالبية مازالت تمارس تأثيرها على طرائق التفكير والعمل والسلوك وعلى منظومة القيم والمعاييروشبكة العلاقات الاجتماعية.**

وعلى اساس ماتقدم نجد تناسي الاغلبية العربية في العراق لهويتها الوطنية الجامعة التي فضلت طوائفها وأدت الى اضعاف الاخر العربي ودفعته الى التحالف مع المكونات الاخرى لتحقيق مصالح انية مما شجع على التدخلات الاقليمية والدولية والقبول بعملية سياسية قائمة على المحاصصة القومية والمذهبية واقامة الديمقراطية التوافقية التي جاءت بنتائج عكسية مع حرص كل طرف على افشال مساعي الاخرين لاصلاح الاوضاع على الصعد كافة السياسية والاقتصادية وغيرها[19].

المحور الثالث: مسببات اشكالية الهوية في المجتمع العربي

ساهمت عوامل عديدة في تأجيج اشكالية طغيان الهويات الفرعية على الهوية الوطنية منها داخلية ومنها خارجية وان الاشكالية في هوية المجتمعات العربية لايمكن حصرها بالداخل بقدر ماهي متأتية من الخارج اي ان من التحديات التي تجابهها هي ان كل جماعة فرعية تستقطب مشاعر الولاء لهويتها الفرعية على حساب الهوية الوطنية وهو مايؤدي الى حدوث ازمة الهوية والتي تأتي بدفع من التوتر والتمزق الوجداني الذي ينمي التمركز على الذات ويدفع الى التعصب والتمييز العرقي او الديني او الطائفي ويقلل من ثم فرص التسامح والتفاهم والحوار[20].

ويمكن ذكر العديد من الاسباب والعوامل التي اسهمت في قيام هذه الاشكالية واتخاذها ابعاد معقدة والتي من اهمها :-

1. البنية الاجتماعية العربية: تتميز البنية الاجتماعية في الوطن العربي بوجود قوي للجماعات القرابية التي ترتكز على رابطة الدم (كالعشيرة) او الاعتقاد الديني الواحد كالطائفة او اللغة والنسب المشترك (كالإثنية) وهذه البنى كانت قائمة في عصر ماقبل الدولة

الحديثة وحافظتعلى وجودها في مرحلة الدولة الحديثة بل وعلى حسابها فهي تستقطب مشاعر الولاء الاجتماعي والفرد قد يلجأ اليها كبديل للدولة وسيادة القانون كما في الحروب الاهلية وحالات الثأر العشائرية مثلاً ولايستطيع الفرد العربي الافلات منها لان المجتمع العربي كله قائم على اساس بنية تراتبية تسودها علاقات الولاء والطاعة بين الصغير والكبير سواء كان الاب في العائلة او شيخ العشيرة اوالحاكم والمحكوم[21]. وقد استطاعت هذه المجموعات الاجتماعية المختلفة (العشيرة او الطائفة..الخ) ان تحافظ على تميزها عن بعضها متحاشية الانصهار في بوتقة الدولة واصبحت عائقة في الوقت نفسه في تكوين هوية واحدة للمواطنين.

2. العصبية والتعصب: يرتبط هذا العامل بالنقطة السابقة فمسألة العصبية التي تساعد على انشداد وتمسك الفرد بهويته الفرعية وانغلاقه على الانتماءات الاخرى تشكل سلوكاً عصبياً يؤدي الى ضعف تغلغل القيم الوطنية الى النفوس، فالعصبية تمثل نظاماً متكاملاً ومنغلقاً من القيم يشكل تحدياً للهوية الوطنية والقومية للمجتمع. فالفرد العربي عندما يشعر انه مشدود تجاه انتمائه الفرعي فانه يجد فيه هوية خاصة تعطي مضموناً عقيدياً لافكاره وبالتالي تصبح عملية تكوين هوية اخرى خارجة عن المضمون العصبوي او متجاوزه فوقه مسالة غير ممكنة عملياً لان خلق الهوية الوطنية يستلزم اضعاف العصبيات الفرعية الموجودة في الدولة تماماً.

3. ضعف المشاركة السياسية: ان اتساع الفجوة بين النظام الحاكم والمواطن في الانظمة العربية ساعدت وتساعد بشكل كبير في ان تكون سبب رئيس في اشكالية الهوية الوطنية فيها لان

اغلـب الاحـزاب والانظمـة العربيـة الـتي تمسـك بزمـام السـلطة جـاءت بطريقـة غيـر شـرعية امـا عـن طريـق التزوير او بـالقوة بواسـطة الانقلابـات العسـكرية والقوة المسـلحة ونصـبت نفسـها على عـرش السـلطة فيهـا اي انها لم تاتي بطريقة ديمقراطية وحضارية من الانتخابات وماتفرزه صـناديق الاقتراع الامر الذي ادى انعدام حلقة الوصـل بينهـا وبين مجتمعاتها مما تسبب في تحقيق هذه الاشكالية[22].

4. **ضعف المأسسة السياسية: والتي تعني ضعف وهامشـية المؤسسـات السياسـية والدسـتورية الـتي تنظـم الحيـاة السياسـية فـي دول وبلدان الوطن العربي كالبرلمـان والهيئات التشـريعية والقوانين التي تنظـم عمـل الاحـزاب والمنظمـات المدنيـة الاخـرى، كمـا ان هنـاك سـبب اخـر يتعلـق بالدسـتور نفسـه الـذي اصـبح يفسـر حسـب هـوى الاحـزاب المتنافسة على السلطة ومن اجل تحقيق مصـالحها واهـدافها واسـتئثارها بالسلطة والحكم اكبر فترة ممكنة ولنا شواهد كثيرة في ذلك وخاصة في العراق.**

5. **ضـعف البنـى الاقتصـادية: تعـاني اغلـب دول الـوطن العربي من ضعف البنى الاقتصـادية فيهـا والتي تسـاهم بشـكل مباشـر في حياة المواطن العربي فانعدام هذه البنية وضعفها كان سبباً رئيساً في بـروز اشكالية الهوية في الدول العربية بسـبب اعتمادها على الاقتصـاد الريعي اي اعتمادهـا على مـورد واحـد فقـط فـي اقتصـادها وهـو النفـط وضـعف القطاعات الاخرى كالزراعة والصـناعة والسياحة وغيرها مما تسـبب في جعل النسبة الكبيرة من المواطنين بلا عمل ولا وظيفة ، اضف الى ذلك ضـعف التوزيـع فـي هـذه المـوارد اي عـدم العدالـة فـي توزيعهـا بيـن افـراد الشـعب الواحـد وانمـا تـدخل بهـا علاقـات الصـلة والقرابـة ممـا تسـبب**

بوجود فجوة بين الطبقة الحاكمة التي تمتلك موارد النفط والطاقة وبين الطبقة المحكومة المحرومة منها[23].

6. **دور العامل الخارجي : وتندرج تحت هذا العنوان عدة اسباب يمكن سردها بشكل سريع منها:**

1. **دور العامـل الاسـتعماري الـذي احتـل بلـدان المنطقـة العربيـة لعقـود طويلـة وتسـبب في تمزيقهـا الـى دويلات متنـاحرة فيما بينها من اجل السيطرة عليها لان بقائها موحدة سيصعب عليـه تنفيـذ اجنـدته وسياسـته المعروفـة (سياسـة فـرق تسـد) الاستعمارية.**
2. **دور العامـل الخـارجي فـي تذكيـة الانتمـاءات الفرعيـة القوميـة والدينيـة والطائفيـة فيهـا بمـوجب تقسـيم بلـدان الـوطن العربي الى عدة دول والتي تفتقد الكثير منها لعناصر الوحدة اللغوية والتاريخية الامر الذي اثر سلباً على بناء هويتها الوطنية مما جعلها تتمسك بهوياتها الفرعية على حساب الهوية الوطنية الام[24].**
3. **كمـا يسـعى العامـل الخـارجي مـن خلال اثـارة النعـرات الفرعية الى تشجيع المطالبة بحق تقرير المصير والاستقلال او الانفصال عن الدولة المركزية وبالتالي سيضعف الدولة المركزية من الداخل مما ينعكس بشكل مباشر على سياستها الخارجية.**
4. **كما ان العولمة والانفتاح الاقتصادي والثقافي اثر سلباً على الهوية الوطنية للمجتمعات العربية بحيث جعلها تعيش في حالة من الاغتراب الثقافي في المجتمع وفقدانه للهوية الوطنية**

الجامعة نتيجة الغزو الاعلامي الهائل الذي تتعرض له الشعوب العربية مما جعلها تفقد هويتها العربية الاسلامية الاصيلة.

المحور الرابع: نتائج اشكالية الهوية في الوطن العربي

لقد ترتب على اشكالية الهوية والولاءات الفرعية في الدول العربية مجموعة من النتائج والتي وان بدت مستقلة عن بعضها الا انها في الحقيقة مترابطة احداها بالاخرى وهذه النتائج تشكل سمات الدول النامية والدول العربية جزء منها والتي عجزت حتى الان عن تحقيق هوية موحدة جامعة للكل ومن هذه النتائج:

1. **الممارسات الايديولوجية واهمها الايديولوجيات الشمولية متمثلة بالأحزاب القومية العربية التي لم تعمل على بناء دول مستقرة تطمح حسب رؤاها الى دولة اتحادية كبرى تجمع الدول العربية ، اي انها لم تكن سوى مرحلة انتقالية لتحقيق الوحدة حسبما تدعي ايديولوجيات الاحزاب القومية[25].**
2. **ان الهوية الوطنية لدى الفرد العربي كانت قد تعرضت للكثير من التشويه جراء ما مارسه المجتمع السياسي من خلال فهم ان الهوية الوطنية تعني الغاء (الذات) وتقمص ذات اخرى تفرض قسراً، وبهذا فان الهوية الوطنية العربية لم تنبع من ذات الفرد بشكل تلقائي بل تمت هذه العملية من خلال ما قامت به الدولة ونخبها ذات الايديولوجية القومية والتي مارست عمليات الصهر والدمج القسري لجميع مكونات الشعب على اختلاف اطيافه الاثنية والدينية والمذهبية كما هو الحال في العراق وسوريا ولبنان ومصر.**
3. **عدم الاستقرار السياسي لدول المنطقة العربية والذي كان من احد اسبابه الصراع الذي حصل في علاقة الدولة بالمجتمع لان الدولة**

لديها مشروع سياسي بعيد عن تطلعات وثقافة المجتمع او يتقاطع مع الخلفيـة الثقافيـة لبعـض المكونـات ممـا افضـى بالدولـة الـى ان تمـارس القسر والاكراه لفرض مشروعها السياسي[26].

4. ان طبيعة بناء السلطة اتسمت بقيامها على جهاز بيروقراطي غير منتج وتم افساده بعوامل عديدة تتعلق بشكل النظام وسياساته وكذلك على جهاز امني صارم للحفاظ على مركزية السلطة الامر الذي نتج عنه التوحد بين الدولة والسلطة فاصبحت الدولة هي السلطة والسلطة هي الدولة رغم الفوارق بينهما.

5. **من الجانب الاقتصادي تميزت الدولة بامتلاكها لوسائل الانتاج واحتكارها للثروات وعوائدها بوصفها دولة ريعية، فتضخمت وتقوت على حساب المجتمع الذي اصبح ضعيفاً وارتبط الحصول على مورد الرزق في الدولة بالعمل في مؤسساتها، فالدولة هي المالك الاكبر للمال والنفوذ وقد وظفت كل امكانيات الدولة من اجل غاية واحدة هي خدمة النظام السياسي القائم والحفاظ عليه من التحديات الداخلية والخارجية، وطبقاً لذلك اصبح النظام فاقداً لمشروعيته واصبح المجتمع بعيداً عن التأثير فيها وتسيدت الدولة عليه واثرت على حقوقه التي تراجعت اهميتها في ظل تغول الدولة فرسمت الدولة حقوقها والزمت المواطنين بها ومنها شكل الهوية الوطنية التي ارتأها في ظرف لم تعد الحقوق السياسية من اهم شواغل المواطن العربي[27].**

6. **لقد تنازعت المواطن العربي في مسالة الهوية اربع هويات ذات طبيعة متنافسة ان لم تكن متناقضة هي الهويات القومية والوطنية والدينية الطائفية والقبلية العشائرية والتي كان من شأن اختيار احداها بشكل صريح او ضمني ان يحدث اشكالات داخلية او اقليمية ، ففي العراق**

مثلاً اصطدمت الهوية العربية بمشاعر التكوينات الاثنية والقومية غير العربية داخل الدولة العراقية (كالاكراد والتركمان وغيرهم) بقدر ما اصطدمت الهوية القومية ايضاً بتوجهات دول عربية اخرى كانت قد قررت ان تكون وطنيتها اختياراً نهائياً لهويتها واصطدمت الهوية الوطنية القطرية بمشاعر المواطنين الذين يتطلعون الى التواصل في تجمع سياسي اوسع عربي او اسلامي وهذا ماعمق في النهاية اشكالية الشرعية والمشاركة والاندماج والتوزيع[28]، فتسببت كل ازمة منها في تعقيد الازمات الاخرى وزيادة حدتها ومنها ازمة الهوية[29].

7. التهديد بتفكك الدولة: ان عدم شعور الافراد بالولاء لدولتهم التي تربطهم بها روابط قانونية–سياسية وشعورهم عوضاً عن ذلك بالولاء للانتماء الفرعي يجعل بقاء الدولة عرضة للخطر لاسيما اذا لم تكن تمتلك القوة الكافية لربط اجزائها فعندئذ يحدث الانفصال الذي تعجل به ثلاثة عوامل هي:

1. فشل الدولة في توفير الحياة الكريمة والخدمات والامن للمواطنين او تضييقها على فئة او فئات محددة مقابل اعتمادها على فئة واحدة بدعوى ان الجماعات او الفئات الاخرى لاتمتلك الولاء للوطن.
2. تصادم الولاءات الفرعية فيما بينها نتيجة لرواسب تاريخية او شعور بالغبن من قبل فئة معينة ذلك ان اتباع كل فئة او مكون فرعي قد يشعرون بالحقد على الفئات الاخرى مما يدعوهم الى طلب الانفصال وفي هذه الحالة فان مفهوم المواطنة لايمكن تطبيقه بل قد لايكون معروفاً من قبل الفئات

المختلفـة لان الفكـرة نفسـها–الوطنية–لاتتوائم مـع مجموعـة الولاءات والاعتقادات والروابط الثقافية المختلفة للسكان[30].

3. وجـود اختلافـات فعليـة جغرافيـاً او اثنيـاً او دينيـاً او طائفياً بين الفئات المختلفة يعززها وجود المجتمعات الفرعية علـى جـزء مسـتقل مـن ارض الدولـة كجنـوب السـودان قبـل الانفصـال والاكـراد فـي العـراق وليـس مختلطـاً بالاغلبيـة مـن السكان، ففي الحالة الاولى يكون تقوقع الجماعات الفرعية على نفسها بل ربما يكون هو الوضع الطبيعي في ظل تخلف الاتصالات والمواصلات.

الخـــاتمـــة

من خلال ما تقدم يمكن القول ان الهوية الوطنية العربية بقدر ماهي مدعاة للفخر والاعتزاز للشخص العربي والاسلامي لما تمثله من مرجعية تاريخية اصيلة تحظى بها الامة العربية والاسلامية على حد سواء باعتبارها تمثل لغة القرآن وان محمد (صلى الله عليه وسلم) عربياً بقدر ما اصبحت عامل ضعف وتفكك للمجتمعات العربية والاسلامية نتيجة انشطار الهوية الام الى عدة هويات فرعية قد تكون طائفية او مذهبية او اثنية او عرقية او قومية .. الخ ، الامر الذي اصابها بالخيبة وفقدان الامل باعادة الثقة بها خاصة بعد ان قام الاستعمار بتقسيم الوطن العربي الى عدة اجزاء وملل متناحرة ومتنافرة فيما بينها من اجل تفريق شملهم واضعافهم وعدم تمكنهم من الوقوف ضده ، وقد نجح في ذلك فعلاً حيث نلاحظ الخلافات والحروب بين الدول العربية – العربية نفسها نتيجة انشغالها بهذه الهويات الفرعية وبالتالي اصبحت هذه الهويات الفرعية مهددة للتماسك

الاجتماعي ومدعاة للتخلف والفقر واصبحت بعيدة عن الحداثة والتطور بكل معانيها وتجلياتها لان الهويات الفرعية تصيب حركة النهوض الحضاري والتكنولوجي وتخل بكل امكانات النقلة الحضارية الممكنة وتشكل عامل هدم للتماسك الاجتماعي في المجتمعات العربية ، ومما لاشك فيه ان هذا الواقع المتردي يؤدي الى اشكالات عديدة فهو يجعل الدول العربية عاجزة عن تحقيق الديمقراطية والتنمية والوحدة الوطنية ويلقي بضلاله على مستقبل الوطن العربي.

Abstract:

The theme of national identity and still represents one of the controversial sparring sharp debate the issues it raises inter politically problematic in the first place, social, economic, intellectual and cultural lesser extent in most Arab countries and societies and other countries in the developing world those whose living conditions were volatile and characterized by ethnic, sectarian, religious and tribal diversity in particular, We say political class basis because the circumstances and political climates and the nature of the existing political system plays a big role and actor along with other factors complementary either in shaping and strengthening of national identity or weakening and absent in favor of sub-identities - national, religious, sectarian or zonal.

So no sub-identities can in such communities to build a national identity, because the scope of work and interest going on in the social space (community) and not the political space (the state) if Maalmna that the most important qualities of the modern state as a national exceed part to include all and therefore sub-

culture can not build citizenship for being narrow and confined space within the social class they represent and thus restrict the individual's choices in favor of the decision to take stock of the natural community parties, partisan or sectarian or ethnic affiliation sub working hard and not as strong as the political program offered to the public.

* كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين Ahmedalnahi72@yahoo.com

** كلية العلوم السياسية، جامعة النهرين sadamsatar1975@yahoo.com

[1]) صالح لافي المعايطة، اشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية، جريدة الرأي، بتاريخ 11/1/2011، على الرابط الالكتروني الاتي: http//www.alrai.com

[2]) ياسين البكري، الهوية الوطنية العراقية.. منظور المخاوف ومسارات البناء، الحوار المتمدن، العدد 2576 في 5/3/2009، على الرابط الالكتروني الاتي: http//www.ahewar.com

[3])محمد الداود، مثقفون يحذرون من تفكك "الهوية الوطنية لمصلحة الانتماءات الفرعية"،صحيفة الحياة، بتاريخ 16/آيار/2014، على الرابط الالكتروني الاتي:

http//www.alhayat.com/articles/23951461

[4]) صموئيل هنتنجتون، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الامريكية، ترجمة حسام الدين خضور، دار الحصاد للنشر، دمشق، 2005، ص ص 38– 39، وكذلك ينظر: محمد عياش الكبيسي، قراءات في هوية العراق بعد الانسحاب الامريكي ، مجلة شؤون عراقية، المركز العراقي للدراسات الاستراتيجية، السنة الثالثة، العددان الثالث والرابع مزدوج، حزيران/2012، ص 2.

[5]) عبد الرزاق عيد، الثقافة الوطنية/ الحداثة واشكاليات الهوية، سلسلة دراسات فكرية، دار الصداقة، حلب، 1996، ص 17.

[6]) حيدر قاسم الحجامي، اشكالية الهوية الوطنية ، ص 1 ، مقال منشور على الرابط الالكتروني الاتي:

http//www.aljadidah.com/2010/01/1706

[7]) عبد المنعم المشاط، التعليم والتنمية السياسية، مجلة مستقبل التربية العربية، القاهرة، المجلد الاول، العدد 2، 1995، ص 17.

[8]) علي اسعد وطفة، اشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد 282 ، آب ، 2002 ، ص 97.

[9]) المصدر نفسه، ص 98.

[10]) وميض جمال عمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984، ص 60.

[11]) للمزيد من التفاصيل عن مفهوم المواطنة، ينظر: جواد مطر الموسوي، المواطنة وتدريس حقوق الانسان، المجلة السياسية والدولية، كلية العلوم السياسية، الجامعة المستنصرية، السنة الرابعة، العدد 104 ، 2010، ص 129.

[12]) شمخي جبر، الهوية العراقية (وتذويب) الهويات الفرعية، ميزوبتاميا، دورية تعنى باحياء الهوية العراقية ، على الرابط الالكتروني الاتي:

http//www.mesopot.com/default/index.php?option=com_content

[13]) محمود امين العالم، المشهد الفكري والثقافي العربي عام 2000، مجلة المستقبل العربي، السنة 23، العدد 257، تموز /2000، ص ص 20–21.

[14]) جواد كاظم البيضاني، بناء الهوية الوطنية، مركز سومو للدراسات والبحوث، بغداد، آيار /2006.

[15]) عادل الجبوري، الهوية الوطنية والهويات الفرعية في المجتمع التعددي ، 4/تموز/2012، على الرابط الالكتروني الاتي:

http//:www.albadee.net/news/4012 وكذلك ينظر: سعدي ابراهيم حسين، الفيدرالية والهوية الوطنية العراقية، ط 1، بغداد، دار الكتب العلمية، 2012، ص أ.

[16]) عادل الجبوري، الهوية الوطنية والهويات الفرعية في المجتمع التعددي، مصدر سبق ذكره .

[17]) ليث عبد الحسن جواد الزبيدي، المشكلات السياسية في عالم الجنوب، بغداد، 2014، ص 59.

[18]) ابراهيم الحيدري، الولاءات العشائرية والطائفية واشكالية الهوية في العراق، موجز البحث المقدم للملتقى الفكري الاول للحوار الوطني، بغداد، من 2–3/تشرين الاول/ 2009، ص 2.

[19]) علي عباس مراد، اشكالية الهوية في العراق.. الاصول والحلول، مجلة المستقبل العربي، العدد 390، آب/2011، ص 85.

[20]) ليث عبد الحسن جواد ، مصدر سبق ذكره ، ص 66.

[21]) هشام الشرابي، البنية البطركية، بحث في المجتمع العربي المعاصر ، بيروت ، دار الطليعة ، 1987 ، 1987 ، ص 120 ومابعدها، وكذلك ينظر : صادق الاسود ، علم الاجتماع السياسي اسسه وابعاده ، بغداد ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، 1980 ، ص ص 411–413.

[22]) علاء جبار احمد، الهوية وازمة الانتماء، المجلة السياسية والدولية، بغداد، كلية العلوم السياسية، الجامعة المستنصرية، العدد 8، السنة الثانية، 2008، ص 187.

[23]) حسان شفيق العاني، الانظمة السياسية والدستورية المقارنة، ط 2، بغداد ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، 2007، ص 335.

[24](ليث عبد الحسن جواد ، مصدر سبق ذكره ، ص 75.

[25]) علي عباس مراد ، مصدر سبق ذكره ، ص 85.

[26]) حيدر قاسم الحجامي ، مصدر سبق ذكره ، ص 1.

[27]) علي حسن الربيعي، تحديات بناء الدولة العراقية صراع الهويات ومأزق المحاصصة الطائفية ، في مجموعة باحثين، الاحتلال الامريكي للعراق، المشهد الاخير، ط 1، سلسلة كتب المستقبل العربي، 2007، ص ص 87–88. وينظر كذلك: فريق ابحاث، ديناميكيات النزاع في العراق (تقييم استراتيجي)، معهد الدراسات الاستراتيجية ، ط 1 ، 2007، (بغداد، اربيل، بيروت)، ص 42.

[28]) للمزيد ينظر: رعد عبد الجليل مصطفى الخليل وحسام الدين علي مجيد، نموذج الدولة– الامة التقليدي في مواجهة ازمتي الاندماج والهوية، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 33، شتاء 2012، ص 122.

[29]) نادية فاضل عباس الفضلي، المواطنة والهوية المشتركة ودورها في بناء الدولة العراقية ، تحرير علاء عكاب، مجموعة باحثين، استراتيجية بناء دولة العراق بعد الانسحاب الامريكي، من اعمال المؤتمر السنوي لقسم الدراسات السياسية، بيت الحكمة، مطبعة شفيق، 2011 ، ص 698.

[30]) ليور الوكيتز، العراق والبحث عن الهوية الوطنية، ترجمة دلشاد ميران، دار آراس للطباعة والنشر، اربيل، 2004، ص 212.